السخرية في كتاب البخلاء للجاحظ
"دراسة تداوليّة معرفيّة"

المقدمة:

- تميز الجاحظ في كتاباته بأسلوب لم يسبق إليه فقد مزج الفكاهة بالجد، والبرهان المقنع بالتهكم الموجع، فاتخذ التهكم أسلوبًا من أساليب النقد والإقناع، ونظرا لصعوبة الكتابة الساخرة ، كونها فن تتطلّب من المنتج دراية محكمة بالنقد الخفي والفكاهة الظاهرة وفق معايير فنيّة يفرضها الجنس الأدبي، وتتطلب من المتلقي فهم تصورات المنتج ومقاصده في الإطار الزماني والمكاني، بتفكيك النص ومعرفة العلامات والأصوات الموجهة للدلالة الجديدة، فقد سعت هذه الدراسة إلى دراسة كتاب البخلاء للجاحظ؛ ذلك لأنه كتاب يثير الضحك فلا يمزح، ويدعو للتأمل والإعجاب بمؤلف شديد الفطنة حاد الذكاء، مدهش عند كل جملة، وقد اعتمدت الدراسة على المنهج المعرفي اعتمادا على نظرية الصدى لسبايبر التي ترى أن الخطاب الساخر ما هو إلا تأويلٌ لملفوظٍ يتم فيه استرجاع فكرة شخصٍ ما غير المتكلم، أو أفكارٍ ماضيةٍ للمتكلم نفسه؛ "أكثر النظريّات تمثيلا لاتجاه التداوليّة العرفانيّة"، كما يرى جاك موشلر، وآن ريبول.
- ولا أزعم أن هذه الدراسة هي الدراسة الأولى في كتاب البخلاء للجاحظ، فقد سبقت هذه الدراسة دراسات عدة، إلا أن دراستنا هذه تختلف عن الدراسات السابقة في كونها تتناول سخرية الجاحظ في كتابه البخلاء، معتمدًا المنهج التداولي المعرفي، مختبرًا التحليل الذي تقدّمه نظريّة الصدى الذي يفسّر السخرية على أنّها استرجاعٌ لقولٍ أو رأيٍ أو فكرةٍ أو شعورٍ أو اعتقادٍ سابقٍ للمتلفّظ أو لغيره أو لمجموعةٍ من النّاس، كما تهتم دراستنا بدراسة العوامل التي حققت السخرية في الكتاب، بناءً على الفكرة التي تؤسسها نظرية الصدى.
- وقد بينت الدراسة في مبحثها الأول مفهوم السخرية في نظرية الصدى، ثم ركزت على الجانب التطبيقي على السخرية في كتاب الجاحظ بناء على هذه النظرية.

مفهوم السخرية:

- لم تتمكن جهود العلماء والباحثين من وضع مفهوم دقيق للسخرية يحدها بضوابط ومقاييس، بها يمكن أن نحدد ما يندرج تحت هذا اللون الأدبي، وتمنع تداخله مع غيره من الألوان الأدبية الأخرى، ولعل مرد ذلك ورود هذه اللفظة في التراث العربي، والمعاجم العربية مرادفة للضحك والإضحاك، والهزء والتنقيص، والاستخفاف والتحقير.
- وقد تعددت تعريفات الباحثين للسخرية، وتنوعت بناء على الزاوية التي ينظر إليها عند تعريفها، فقد ركزت بعض التعريفات على بيان سمات فن السخرية وخصائصه، في حين ركز بعضهم على دوافع السخرية وأهدافها، ويركز بعضهم على النوازع النفسية للساخر، والقضايا الفكرية التي تشغل ذهنه.
- وقد عرفت السخرية على أنها عنصر يحتوي على توليفة درامية من النقد والهجاء والتلميح والتهكم والدعابة؛ للتعريض بشخص معين أو مبدأ من المبادئ أو فكرة من الأفكار، ولفت الانتباه إلى أوجه القصور فيه، كما عرفت على أنها فن من الفنون به تبرز الحقائق المتناقضة، والأفكار السلبية في صورة لا يمكن مقاومتها، والرد عليها، بعيدا عن الهجوم المباشر أو في موقف يكون هدفًا للانتقام.

- وعرفت على أنها تصوير الإنسان تصويرا مضحكًا بتشويه صورته، أو بتكبير العيوب الجسمية أو العضوية أو الحركية أو العقلية، أو بتتبع عيوبه داخل المجتمع، كما عرفها بعضهم على أنها وسيلة من وسائل الترويح عن النفس، تكون صدى للحالة السياسية أو الاجتماعية أو الثقافية لواقع أفراد المجتمع.
- وإن تعددت التعريفات واختلفت بناء على الزاوية التي يعالج فيها المصطلح إلا أنها تتفق في أن السخرية تهدف إلى إصلاح مواطن خلل المجتمع وضعفه، والتعبير عن المعاناة التي يعيشها الفرد في المجتمع دون إسفاف في القول ولا ابتذال في التعبير.
- وبما أن أهم هدف للسخرية الحفاظ على قيم المجتمع، و " تهاجم التصلب في الفكر والطبع والسلوك لجعل طباع المجتمع أكثر مرونة". فإن الحجاج أكثر آلية موائمة لها، مما يجعلها (السخرية) سلاحًا نافذًا في الحجاج، فحين نسخر من شخص فإننا نعبر ضمنيًا أنه ارتكب خطأ يستحق عليه العقاب، فالمثير للسخرية هو من يستحق أن يعاقب بواسطة الضحك، والسخرية هي عقوبة خرق قاعدة مسلم بها، طريقة لإدانة سلوك شاذٍ لا نرى أنه جسيم أو خطير حتى نردعه بوسائل أكثر عنفا".

- وقد أولت نظرية الصدى وتعدد الأصوات حوارية اللغة اهتمامًا بالغًا، فالكلام موجود داخل عالم الخطاب، فيعضده التلفظ أو يفنده، ناسجًا بعدا تفاعليًا بين الملفوظات، فالمتكلم يمثل صوته ونقيض صداه، وركزوا على المؤشرات الخطابية على أنها علامات دالة على الأثر الساخر، أكثر من السياق التلفظي الذي تركز عليه نظرية تعدد الأصوات، أما التلفظات حسب نظرية الصدى لسبيربر تشكل حوارًا داخل الخطاب، ولا يشترط انتسابها لوجهة معينة، أو لخطاب أو لرأي واحد، فالمنتج يتقمص أدورًا مختلفة يخبئ صوته ليحيل إلى أصوات أخرى، ذلك أن فكرة المنتج هي تأويلٌ آخر لفكرة شخصٍ ما، فهي تأويلٌ لأفكارٍ سابقة، فالساخر يجعل التلفظ معبرًا عن موقف المتلفَظ، فهو يتنصل من مسؤولية القول الساخر، بممارسته دور جمهوره وحديثه عنه دون ضوابط، فالعملية التواصلية، عملية يقدم فيها المتكلم رسالة مشفرة لغوية وغير لغوية، ويعتمد المتلقي على نموذج استدلالي لفك رموزها، فالمنتج يقدم لفظا يحمل قصده من إيصال معنى معين، يستدل عليه المتلقي من الخطاب المقدم له. فيدخل المنتج المدخلات المناسبة، ومنها الأصوات والمشاهد والألفاظ، بمعطياته المعرفية المخزنة في ذاكرته، ويفسرها ويفهمها بناء على تصوره للعالم وإدراكه له.

القصد الإخباري في السخرية في كتاب البخلاء:

- يسعى المنتج في الملفوظات الصدويّة الساخرة إلى تأمين بيئةٍ إدراكيّة مشتركةٍ بينه وبين المتلقي؛ ليسهل على المتلقي الوصول إلى تأويل يسير لطبيعة المعلومات المرسلة، وإدراكها إدراكا مناسبًا لما تحمله من معان صريحة، وفق مبدأ الصلة، يسمح بفهم تأثيرات السياق بأقل جهدٍ ممكن للوصول إلى تأويلٍ مشابهٍ لتأويل المنتج.
- ونتبين ذلك في نص الجاحظ، في قوله: " قال أصحابنا: يقول المروزي للزائر إذا أتاه، وللجليس إذا طال جلوسه: تغديت اليوم؟ فإن قال: نعم، قال: لولا أنك تغديت لغديتك بغداء طيب، وإن قال: لا، قال: لوكنت تغديت لسقيتك خمسة أقداح، فلا يصير في يده على الوجهين قليل ولا كثير"
- ويتبين القصد الإخباري في نص الجاحظ من استعماله وسائل تثير انتباه المتلقي وتدفعه إلى إظهار المعنى المقصود، فالجاحظ يفتتح سخريته نقلا عن أصحابه، بما يقوله المروزي للزائر إذا أتاه وللجليس إذا طال جلوسه: تغديت اليوم؟ فقد مثل السؤال مصدرًا للمعلومات المناسبة جعلت هذا الملفوظ ملفوظًا ساخرًا، فقد أمنت بيئةٍ إدراكيّةٍ مشتركة تُتيح للجاحظ السخرية في ضوء المعلوم بينه وبين المتلقّي ما يمنع اللبس أو الفشل في التأويل، وقد بين النص وجود ضحيّة السخرية، وهي مفتاحُ القصديّة في السخرية.

- لقد تحققت السخرية في المثال السابق في ذم البخل في أهل مرو، وقد تحقق ذلك في المعلومات الإخبارية في بقية الأدوار الكلامية، من إجابة الزائر، فأيًا كانت إجابته لن يستطيع أن يصل إلى شيء من أهل مرو، فالحديث عن البخل يتطلب التصريح بالمعلومات التي تقود إليه، وهي ظاهرة في سطح النص، الغداء، التي تكررت في نص مكون من ثلاثة أسطر خمس مرات، بصيغها الماضية في ثلاثة مواضع، مما يدل على أن تكرارها في الماضي بهذا العدد إنما يدل على انتهاء حدث الغداء، فليس هناك داع لتقديم الغداء له، وقد سبق الفعل الماضي في موضعين بلولا، وهو حرف امتناع لوجود، في حين أنه قدم المضارع في موضع واحد فقط، وذلك بخلا منه حتى لا يكون هناك إصرار من المروزي فيوافق الزائر أو الجالس، وورد اللفظ مصدرًا في موضع واحد فقط، وهو غداء، لإدراكه أن الغداء، وهذه قاعدة معرفية مشتركة مع الجميع أن الغداء إنما يكون مرة واحدة في اليوم. وهذه المعلومات معلومات استدلالية مباشرة وكافية لبيان البخل؛ لا سيما أنها علاقة تتناسب مع ما يجري في العالم الخارجي من انتشار البخل في بعض المجتمعات، وهذا ما يقود المتلقي إلى قبول المعلومات وتصنيفها دون جهد معرفي استدلالي أو تأويلي، وقد حقق بذلك شرطا من شروط المناسبة المعتمد على أدنى جهد في الإدراك والتفسير والفهم، سعيًا منه إلى أن تكون عملية التواصل ناجحة، مما دفع المتلقي إلى تصديقها معتمدا على السياق المعرفي العام والمشترك بين المنتج والمتلقي، في صحة المعلومة كونها نتيجة منطقية بناء على المعنى الصريح في النص، فالجاحظ يستعمل مختلف السياقات لإنتاج الأثر الساخر، إذ يسهل على القارئ فهم السخرية والوصول إليها بناءً على العلامات الدّالة.

القصد التواصلي في السخرية في كتاب البخلاء:

القصد التواصلي حسب نظرية المناسبة مقدمة تؤسس لفهم ما يستنبط من أحداث تواصلية متتالية اعتمادًا على الاستدلال، فيهدف المتكلم من الأثر والاستجابة إلى إنتاج مجموعة من الافتراضات يتوقع أن تؤدي إلى نتائج معللة ومتصلة منطقيًا بهذه المقدمة، فقد استطاع الجاحظ بهذه المقدمة أن يبرز لنا قصده الساخر من أهل مرو، اعتمادًا على الأدوار الكلامية التي خضعت لقانون التحفيز والاستثارة، ثم الجهد المعرفي وهو ما دفع المتكلم إلى بذل جهد لمعرفة محتوى القصد وفهمه، والإجابة على سؤاله، ثم الإشباع وهو الوصول إلى القصد التواصلي الشامل.

إن هذه المراحل تشكل شرطًا من شروط المناسبة وهو أساس عملية التواصل والتفاعل بين المنتج والمتلقي، وقد وظفه الجاحظ في الدور الكلامي؛ ليبرز لنا أن البخل سمة أساسية في أهل مرو، ولا يميزون في بخلهم الضيف أو غيره، وقد أبرز لنا هذه الصفة في الأفعال الكلامية الموزعة عبر الأدوار الكلامية المترابطة والمتماسكة في نسيج الحوار، لا سيما في تعليق المتكلم " فلم أدر كيف أتخلص منه"، فهذه الأفعال الكلامية، ومنها الأفعال (أدرِ) الدالة على المعرفة، والفعل (أتخلص) الدال على عدم القدرة على إقناع الطرف الثاني بالرد على سؤاله؛ لأن سؤاله كان تفسد علينا كوزنا بالملوحة؟ وهو ما أوجب على المتكلم الصمت، وعدم الرد؛ لأنه استطاع بالإجابة على السؤال الأول الوصول إلى قصد الجاحظ وسخريته من أهل مرو.

وقد تمثل ذلك في نص الجاحظ " وكنت في منزل أبي كريمة وأصله من مرو، فرآني أتوضأ من كوز خزف، فقال: سبحان الله! تتوضأ بالعذب، والبئر لك معرضة؟ قلت: ليس بعذب، إنما هو من ماء البئر. قال: فتفسد علينا كوزنا بالملوحة، فلم أدر كيف أتخلص منه".

القصد البراغماتي في السخرية في كتاب البخلاء:

- يعتمد التحليل البراغماتي حسب نظرية المناسبة على ثلاثة أبعاد رئيسية، هي: البعد الاستدلالي ويخضع لعملية تأويل الملفوظ اعتمادًا على استنباط المعطيات البرغماتية المكونة له، والبعد السياقي ويعتمد على تحليل المعلومات السياقية التي تؤثر في إنتاج الملفوظ وفهمه وتأويله، والبعد المعرفي ويهتم بالجانب الذهني الذي يتحكم في عملية التفكير والإنتاج.
- وترتكز عملية الفهم والتأويل على البعد الاستدلالي المركزي في تفكير منتج النص، فهو يعتمد على مجموعة من المقدمات التي تؤدي إلى استنباط جملة من المستخلصات المتضمنة بصورة منطقية، أو مبرهن عليها بهذه المقدمات، اعتمادًا على تفكيك الشفرة وتحليلها، ومن المقدمات الاستهلالية التي يستدل بها على المسارات الذهنية المؤسسة لعملية التأويل الأفعال الكلامية، فهي الموجه الحقيقي إلى القصد البراغماتي والمعنى الذي يصرح به المنتج، ويعتمد تأويله على المؤشرات السياقية والمعطيات البرغماتية، والمعرفة المشتركة.

- قد استطاع منتج هذا النص (الجاحظ) أن يشد انتباه المتلقي بواسطة المنبه الإظهاري، وقد مثلت الأفعال الكلامية الافتتاحية منبهًا إظهاريًا حفز المتلقي على إكمال الحوار في النص، فمثل الدوران الكلاميان منبهًا إظهاريًا شكل بنية النص، فكشف لنا طبيعة المتحاورين وملامحهما النفسية، وقد أسهم بطريقة مباشرة في تحديد طبيعة الحوار وتوزيع الأدوار الكلامية في هذا الأنموذج وفي غيره من النماذج الأخرى التي يسخر فيها من أهل مرو، ولا يكاد يخلو نص من نصوصه من المنبهات الإظهارية التي تحفز المتلقي على إكمال الحوار في نصوصه، وهذا يدل على حنكة الجاحظ في تحقيق مبدأ المناسبة، ويحقق التواصل الناجح.

الخاتمة:

- يتبين القصد الإخباري في نص الجاحظ من استعماله وسائل تثير انتباه المتلقي وتدفعه إلى إظهار المعنى المقصود، أمنت له بيئةٍ إدراكيّةٍ مشتركة تُتيح للجاحظ السخرية في ضوء المعلوم بينه وبين المتلقّي ما يمنع اللبس أو الفشل في التأويل، وقد بين النص وجود ضحيّة السخرية، وهي مفتاحُ القصديّة في السخرية.
- وقد سمحت الطبيعة الصدوية للملفوظات الساخرة للجاحظ بتقديم الأفكار وإضافة موقفه المستنكر تجاهها، وقد استطاع القارئ أن يصل إلى حالة عدم التوافق بين المعلومات التي يوفرها السياق، والرأي الذي طرحه الجاحظ، مما سهل على القارئ الوصول إلى قصد المتكلم بأقل كلفة في الجهد، اعتمادًا على العلامات الدالة.
- وقد اشترك مع العلامات الدالة عند الجاحظ توفر البيئة الإدراكية المشتركة التي أتاحت للجاحظ السخرية في المعلوم بينه وبين المتلقي، وهي حقائق ظاهرة، يعيها حسيًا وذهنيًا وتكون ظاهرة بدرجة أقل في محيطه المادي، وقد وظفه الجاحظ في الدور الكلامي؛ ليبرز لنا أن البخل سمة أساسية في أهل مرو، ولا يميزون في بخلهم الضيف أو غيره، وقد أبرز لنا هذه الصفة في الأفعال الكلامية الموزعة عبر الأدوار الكلامية المترابطة والمتماسكة في نسيج الحوار
- واستطاع منتج هذا النص (الجاحظ) أن يشد انتباه المتلقي بواسطة المنبه الإظهاري، وقد مثلت الأفعال الكلامية الافتتاحية منبهًا إظهاريًا حفز المتلقي على إكمال الحوار في النص، فمثل الدوران الكلاميان منبهًا إظهاريًا شكل بنية النص، فكشف لنا طبيعة المتحاورين وملامحهما النفسية، وقد أسهم بطريقة مباشرة في تحديد طبيعة الحوار وتوزيع الأدوار الكلامية، ولا يكاد يخلو نص من نصوصه من المنبهات الإظهارية التي تحفز المتلقي على إكمال الحوار في نصوصه، وهذا يدل على حنكة الجاحظ في تحقيق مبدأ المناسبة، ويحقق التواصل الناجح.